القمر المغرور

فازت هذه القصة باختيار دار أدب الأطفال السوفييتية، ونُشرت باللغة الروسية تحت عنوان «Солнце луна и тьма кромешная» في كتاب الصداقة مع نحو عشرين قصة أخرى من مختلف أنحاء العالم عام ١٩٨٧.

القمر المغرور

تأليـف: أيمن أبو الشعر
رســوم: قحطان الطلاع

الهيئة العامة السورية للكتاب - منشورات الطفل
وزارة الثقافة – دمشق ٢٠٢٠م

«ليلى» طفلةٌ صغيرةٌ حلوةٌ تعيشُ مع والديها في دمشق. ذاتَ مساءٍ صيفي كان القمرُ ساطعاً يُرسِلُ أشعتَهُ عبْرَ نافذةِ بيتِ ليلى. تأمَّلتْ ليلى القمرَ، ثمَّ اقتربت مِن أبيها وسألتْه:

- بابا ... لماذا يُضيءُ القمرُ ليلاً؟ ولماذا يظلُّ نورُهُ بارداً؟ أمّا الشمسُ فتضيءُ نهاراً، ونورُها حارٌّ يُدفئُ الجميع... لماذا؟

اقتربَ الأبُ مع ابنتِهِ مِن النافذةِ وقال:

- لأن القمرَ يا ليلى لا يُضيءُ من نَفسِهِ، بل إنَّهُ يعكِسُ نورَ الشمسِ وحسبْ، لأنَّهُ كوكبٌ باردٌ، أمّا الشمسُ فهيَ مُلتهِبةٌ شديدةُ الحرارةِ، لأنّها نجمٌ دائمُ الاحتراق. لهذا يا ليلى تُضيءُ الشمسُ وتُدفئ.

أبدت ليلى اهتماماً أكبر وكررت:

- القمرُ كوكبٌ[١] يعكسُ النورَ فقط، أما الشمسُ فهي نجمٌ[٢] دائمُ الاحتراق.

---

(١) الكوكب = جسم معتم لا يضيء من تلقاء نفسه، وقد يكون صخرياً أو غازياً.

(٢) النجم = جسم هائل الضخامة شديد الحرارة ومضيء.

اصطحبَ الأبُ ابنتَهُ إلى شرفةِ المنزلِ، وأشارَ إلى القمرِ والنجومِ والظلامِ، ثم جلس على الأريكةِ[٣] وقالَ لها:

- اجلسي يا بنتي، سأروي لكِ حكايةً خياليةً عن الشمسِ والقمرِ وعدوِّهما الظلام...

وبدأ الأبُ يقصُّ على ليلى التي راحتْ تتابعُ باهتمامٍ كلَّ كلمةٍ يقولها، وتُنقِّلُ نظرَها مِن وجهِهِ نحْوَ القمَرِ حيناً، ونحو النجومِ والمناطقِ المظلمةِ في السماء حينا آخر.

- كانَ يا ما كان، قبلَ بدءِ الزمان، وقبلَ أن تظهرَ الحياة. كان الكونُ في بداياتِ تشكُّلِهِ، حينئذٍ كان الشمسُ والقمرُ صديقينِ حميمينِ لا يفترقان. كانا يطوفانِ السماءَ فَرِحَينِ مَرِحَينِ، يزرعانِها بالزهورِ الفضيةِ اللامعة.

تُقاطِعُ ليلى مُبتسِمةً:

- يعني النجوم.

يُجيبُها الأبُ مبتسماً:

---

(٣) الأريكة = مقعد للجلوس أو التمدد.

• مرحى! نعم يعني النجوم[٤]، والحكايةُ كما ذكرتُ لكِ خيالية.

يتابعُ الأب:

في ذلكَ الزمنِ القديمِ جداً لم يكنِ القمرُ بارداً باهتَ اللونِ كما هو الآن، فقد كانتِ الشمسُ القريبةُ تغطيه بأشعتِها الدافئةِ، إذ لم تكُنِ الشمسُ آنذاكَ حارقةً كما هيَ الآن. وكانتِ الشمسُ - كونها أكبرَ منَ القمرِ - تشعرُ بالمسؤوليةِ عن رعايتِه[٥]، وتحرصُ على حمايتِه. ذاتَ يومٍ أهدتْهُ عِقداً[٦] سِحريّاً يَعكِسُ جميع الألوانِ وينثرُها على وجهِ القمر.

سألت ليلى متشوقة:

• وماذا عن عدوهما الظلام كما ذكرت؟

ابتسمَ الوالدُ مبتهجاً[٧] لأنَّ ليلى تتابعُ فعلاً الحكايةَ باهتمامٍ وقال:

---

(٤) النجوم= كما ذكرنا هي الكتل الكروية الهائلة شديدة الحرارة المشعة، ولكننا نطلق على ما نراه في السماء تسمية النجوم عموماً كونها مضيئة أو تعكس الضوء.

(٥) الرعاية= الاهتمام والعناية والحماية .

(٦) العقد= الطوق الذي يوضع حول الرقبة .

(٧) مبتهجاً = فرحاً - ابتهج: فرح .

- نعم آنَ الأوانُ لنحكيَ عَنِ الظلام. – وأردف[٨] – عاشَ خلفَ حدودِ النهارِ عدوٌّ شريرٌ يحسدُ الشمسَ والقمر. إنّهُ الظلامُ الذي يكرهُ النور والدفءَ، والذي كانَ دائماً يطمعُ بسرقةِ القمرِ وتدميرِ صداقتِهِ مع الشمس. لكنه كانَ يعلمُ أنَّ العِقدَالسحريَّ على عُنقِ القمرِ سيمنَعُهُ من تحقيقِ ذلك، فصارَ يتجسسُ على الشمسِ والقمرِ لعلَّهُ يجدُ وسيلةً[٩]يستطيعُ بها أن يُفرِّقَهما، ويسرقَ القمرَ من الشمسِ، ويبعدَهُ عن حبِّها ونورِها ودفئِها، وراحَ يفكِّر: « لا بدَّ من زرعِ الخِلافِ بينَ الشمسِ والقمرِ، عندَها يزولُ الحبُّ، ويُفكِّرُ كلُّ واحدٍ منهما بنفسِهِ فقطْ، بل يغضبُ مِنَ الآخر... ولكن كيف؟» .

استغربت ليلى:

وهل يمكن تفريقُ الأصدقاءِ المخلصين؟

تابع الأب وهو يهز رأسَهُ أسفاً:

---

(٨) أردف= تابع القول .

(٩) وسيلةً= واسطةً أداةً أو أسلوباً .

• بالخديعةِ أحياناً، فقد كانتِ الشمسُ تُدرِكُ أنَّ الظلامَ يحاولُ أن يُحطِّمَ الحُبَّ بينها وبينَ القمرِ فراحت تُنبّهُهُ:

• استمعْ إليّ جيداً يا صديقيَ الحبيبَ، إنَّ الظلامَ هو عدوُّنا الماكرُ، فحذارِ أن يخدعَك!

هتفَ القمرُ مُنفعِلاً مُعتدّاً بنفسه:

• لا يمكنُ أن يحدُثَ هذا أبداً. إنني لستُ أجملَ ما في الكونِ وحسب، بل أذكى الكائناتِ[١٠] كلِّها، فكيف يخدعُني الظلام؟

قاطعت ليلى:

• هذا غرور!

ابتهجَ الأبُ لردةِ فعلِ ليلى وتابع:

• «في هذا الوقتِ اقتربا من غمامةٍ كبيرةٍ اختبأ الظلامُ خلفها وراحَ يتنصَّتُ[١١]

---

(١٠) الكائنات = المخلوقات - الموجودات .

(١١) يتنصّت = يستمع سراً .

لحديثِهما، وتابعت الشمس»:

- أنت جميلٌ بالفعلِ يا صديقي، ولكنْ لا تنسَ أنَّ أشِعتي هي التي تُظهِرُ جمالَك، وتُوَردَ[١٢] خديك. وهذا العِقدُ السحريُّ رمزُ صداقتِنا يحوطُكَ بألوانِه الزاهية[١٣].... أنتَ ذكيٌّ حقاً، ولكن لا تنسَ أنّنا ننتصرُ على عدوِّنا الظلامِ دائماً لأننا نتصرفُ معاً ونفكرُ معاً.

اختلفتْ لهجةُ الأبِ وبدا فيها القلقُ وتابع:

ثار القمرُ معتبراً أنَّ في هذا التحذيرِ الوديِّ إهانةً لهُ، وقال:

- وهل تعتقدينَ أنني سأغدو قبيحاً وغبيّاً من دونك؟ أنتِ صديقتي الحبيبةُ، ولكنَّني أذكى وأجملُ ما في الوجودِ، ولا يوجدُ، ولن يوجدَ من هوَ أجملُ مني!

قطفتِ الشمسُ زهرةً فضيةً وأهدتْها إلى القمرِ بحنانٍ وهي تقول:

- يا صديقيَ الحبيبَ لم يخطُرْ ببالي قطُّ أنْ أغضِبَك... كلُّ ما أردتُ أن

(١٢) تورّد = احمرَّ وصار شبيهاً بالورد .

(١٣) الزاهية = الملونة .

أقولَهُ هو أنَّ سرَّ جمالِنا يكمنُ في صداقتِنا الحميمةِ هذه. وأن عدوَّنا شريرٌ ماكر. على أيِّ حالٍ لا تغضبْ. يكفي أن تحافظَ على هذا العِقدِ السحريِّ الذي يربِطُنا بألوانِه. انتبهْ يا صديقيَ ولا تُفرِّطْ بهِ أبداً... تعالَ الآنَ لنستَريحَ على هذهِ الغمامةِ، ولنغفوَ قليلاً.

- فرِحَ الظلامُ بما سَمِعَهُ، وبدأَ على الفورِ بتنفيذِ خطتِهِ الخبيثة. خلعَ ثوبَهُ الأسودَ، وراحَ يُزَيِّنُهُ بالزهورِ الفضيةِ وبريشاتِ الغيومِ الصغيرةِ، ويطرِّزُ[١٤] جوانبَهُ بخيوطِ الشفق[١٥] حتى بدا جميلاً مدهشاً... اقتربَ الظلامُ الماكرُ بعدَ أنْ حزمَ من الجهةِ الثانيةِ أذيالَ الثوبِ بحبلٍ أخفاهُ وراءَ ظهرِه. اختبأ خلفَ الثوبِ وراحَ يتحدثُ بصوتٍ ناعمٍ خفيضٍ بهمسٍ حتى لا يوقظَ الشمس:
- أنا أحلى ثوبٍ في الوجود... خُلقتُ ليلبَسَني أحلى مخلوقٍ في الكون!

نهض القمرُ ونظرَ إلى الثوبِ مندهشاً وقال بصوتٍ ناعس:

---

(١٤) يطرِّز= يُزخرف ويُجمِّل .

(١٥) الشفق = الاحمرار الذي يظهر في الأفق عند الغروب .

آه... يا لهُ من ثوبٍ رائع، ما أجملَ أزهارَ النجومِ الفضيّةِ البرّاقةِ والأرياشَ البديعةَ[١٦] حول صدرِه.

همسَ الظلامُ من خلفِ الثوب:

- نعم، أنا أجملُ ثوبٍ في كلِّ الوجودِ، ولكنّي مستعجل ... إنّني أبحثُ عن أجملِ وأذكى كائنٍ في الكون، فهو وحدَهُ الذي سيحصلُ عليّ وأكونُ ملكَه. ألا تدلُّني عليهِ من فضلِك؟ أينَ أبحثُ عنه؟ وأينَ يُمكن أن أجده؟
- إنّهُ أنا – قال القمرُ مُقترباً من الثوبِ ومُبتعِداً عن الشمس- أنا أجملُ ما في الوجودِ، وليسَ هناكَ أجملُ أو أذكى منّي!
- نعم أنتَ جميلٌ بالفعل – قالَ الظلامُ بمَكر[١٧]- ولكن... ربّما تكونُ الشمسُ أجملَ منك!
- لا، لا – لم يتمالك القمرُ نفسَهُ راغباً في الحصولِ على الثوبِ بسرعة - لا يمكنُ حتى الشكُّ في ذلك بكلِّ بساطةٍ لا يوجدُ أجملُ منّي، بل لا يُمكنُ أن يوجدَ،

---

(١٦) البديعة = الجميلة .

(١٧) المكر = الخداع والحيلة باستعمال الدهاء .

والشمسُ نفسُها تعرِفُ ذلك، هل تحبُّ أن أوقظَها لتسألَها؟

لا، أبداً – قالَ الظلامُ بسرعةٍ وأردف– حاولْ إذن .

- حاولَ القمرُ أن يلبسَ الثوبَ، لكنَّ العقدَ السحريَّ أعاقَهُ فلم يدخلِ الثوبُ في عنقِهِ، حينئذٍ قالَ الظلامُ بِسخرية:
- أرأيت؟ إنني لستُ لكَ طالَما لم تسطع ارتِدائي[١٨]، لا بدَّ أن أبحثَ عن غيرك.
- أبداً، أبداً – صاح القمر – أنتَ لي ولكنَّ العقدَ السحريَّ هو الذي يُعيقني... لقد أهدتني إياهُ الشمسُ حتى لا يسرقَنيَ الظلام.
- ها ها، – سخِر الظلام – وتدَّعي أنكَ ذكي، بل أذكى مَن في الوجود. إذن الشمس أذكى مِنك، فليسَ حولَ عنقِها عقدٌ سحريٌّ، وهي تستطيعُ أن تلبسَني، واضحٌ أنها أعطتكَ العقدَ لكي تحتفظَ بالثوبِ لنفسِها... سأوقِظُها إذنْ أيّها الذكي!...

---

(١٨) ارتدائي = لبسي .

ماذا تقول-!!! - صاح القمر - أنا الأجمل .

لم يكنِ الظلامُ بالطبعِ يريدُ أنْ يوقِظَ الشمس، بل أنْ يجعلَ القمرَ يشكُكُ بها... وقد غضبَ القمرُ، وظنَّ بالفعلِ أنَّ الشمسَ خدعتْهُ لتأخذَ الثوبَ لنفسِها، فخلعَ العقدَ ورماهُ بعيداً في الأفق، ودخلَ بالثوبِ وهو يهتف:

انظرْ إذنْ ها قد لبِستُك.

هذا ما كانَ ينتظرُهُ الظلامُ، وأسرعَ بشدِّ الحبلِ فتحوَّلَ الثوبُ إلى كيسٍ كبيرٍ مقفل... وخلالَ لحظةٍ غادرَ السماءَ المضيئةَ إلى مملكتهِ المُظلمة.

صحتِ الشمسُ فلم تجدِ القمرَ إلى جانبِها، بحثتْ عنهُ في كلِّ مكان لكنَّهُ كانَ قد اختفى تماماً. حزنت الشمسُ وغضِبتْ حتى أصبحتْ حمراءَ لاهبةً[١٩]، وراحت تطوفُ[٢٠] السماءَ بحثاً عن صديقها وهيَ تشدو[٢١] حزينة:

---

(١٩) لاهبة = شديدة الحرارة يظهر اللهب من أطرافها .

(٢٠) تطوف = تتنقل .

(٢١) تشدو = تغنّي .

أينَ أنتَ يا صديقي؟ لماذا لم تسمعْ نصيحَتي؟ لماذا تخلَّيتَ[٢٢] عن العِقدِ السحريّ رمزِ حُبِّنا؟

فهمَ القمرُ خطأَهُ بعدَ فواتِ الأوان[٢٣]، فشحُبَ لونُهُ وصارَ يطوفُ السماءَ بحثاً عن صديقتِهِ الشمس. حينئذٍ أدركَ أنَّ الجمالَ والذكاءَ موجودانِ في الصداقةِ نفسِها، وراحَ يُغني بصوتٍ حزين:

- أيُّ معنىً لجماليْ بتُّ وحديْ، لا أنامْ
صرتُ في سجنِ الليالي دائماً وسْطَ الظلامْ
بعتُ أيامي الغوالي[٢٤] ليسَ غيريْ مَن يُلام

وظلَّتِ الشمسُ تطوفُ السماءَ بحثاً عن القمرِ من الصباحِ حتى المساء... والقمرُ يبحثُ من المساءِ حتى الصباحِ دونَ أن يلتقيا... وحين تسمعُ الغيومُ غناءَ القمرِ الحزينِ

---

(٢٢) تخليت = تركت .

(٢٣) بعد فوات الأوان = لم يعد ينفع أي عمل، فقد تأخر .

(٢٤) الغوالي = النفيسة غالية الثمن .

ونداءَ الشمسِ اللاهبةِ تحزنُ على صديقيها القديمين، وتبكي أمطاراً رقيقةً على الأرضِ، فتنعكسُ عبر دموعِها ألوانُ العقدِ السحريِّ الذي رماهُ القمرُ بعيداً في الأفقِ، فتظهرُ قوسُ القزح.

أيمن أبو شعر

شاعرٌ عربيٌّ سوري، صدرت له مجموعات شعريّة وأعمالٌ مترجمة كثيرة منها:

- مسرحية رسائل عشق.
- الأخوة والأخوات (ترجمة).
- دراسات في تاريخ الثقافة العربية في القرون الوسطى (ترجمة).
- أنطولوجيا الشعر السوفييتي.
- الحب في طريق المجرة (شعر).

٢٠٢٠م